خريف غزة العاصف 11

كتبهاد. أكرم حجازي ، في 16 فبراير 2009 الساعة: 23:13 م

خريف غزة العاصف

قتال يبحث عن عقيدة

(11)

د. أكرم حجازي

17/2/2009

... وسـيتذكر الفلسـطينيون وغيرهـم ممـن شـهدها أن معركـة مخيـم جنيـن سـنة **2001** خلال اجتيـاح إسـرائيل للضفة الغربية كانت الأشرس على أرض فلسـطين حـتى ذلك الحين، وكانت نذيرا للحروب الإسرائيلية القادمة في فلسـطين. خمسـون مقـاتلا أغلبهـم مـن حركـة الجهـاد الإسلامي، حيث تعتبر مدينـة جنيـن معقلهـم فـي الضـفة، وفي مبادرة منهـم، دخلـوا مسـجد المخيـم وعاهـدوا اللـه على قتال اليهود حتى آخـر رمـق مهمـا كـانت النتائـج ... وبدأت المعركة الطاحنة مع الجيش الإسرائيلي الذي فقد فيها قرابة العشرين جنديا بـاعترافه. وتـم تـدمير المخيـم وقتل 500 من سكانه، ولم تنل إسرائيل مـن المخيـم ولا مـن مقـاتليه إلا بعـد أن نفـذت ذخيرتهـم. كـان محمـود

الطوالبة أحد أعظم قادة المعركة، ولما قيل له: "**الحرب كرّ وفرّ** " أجاب: "**هذه معركة فيها كرّ وليس فيها فر**ّ". وفعليا كانت معركة جنين الأولى والوحيدة التي لـم ينج منها مقاتل ولم يسـجل بهـا جرحـى! فمـن بقـي فـي المخيم قتل سواء من السكان أو المقاتلين.

أهم ما في المعركة أنها خيضت بمصطلحات ومعايير غيـر أيديولوجيـة أو حزبيـة أو تنظيميـة، وكـان جليـا أن الأداء القتـالي اختلـف كليـة عمـا سـبق مـن أداء فـي معـارك ماضية. وذات الأمر وقع خلال الحرب على غزة، إذ يشـهد جيل النكبة أن ما شـاهدوه وعايشـوه لـم يسـبق لهـم أن رأوا مثيلا له منـذ مـا قبـل قيـام إسـرائيل سـنة **1948** . وبمقاييس الحروب فإن ما جرى لغزة هي الحرب الأولـى والأوسع والأشد وحشية الـتي تقـع علـى أرض فلسـطين، والتي خاض الفلسطينيون فيها قتـالا ضـد إسـرائيل علـى أرضهم.

في هذه المقالة لا يهمنا التوقف عنـد نتائـج الحـرب فيمـا إذا كانت نصرا أو هزيمة مع أننا نرى أنهـا بالتأكيـد ليسـت نصرا لليهود ولا هزيمة لحماس. لكن مـن المهـم التوقـف عند منطق الحروب السابقة الـتي خاضـتها إسـرائيل ضـد الفلسطينيين والعرب ومنطـق العقيـدة القتاليـة ومنطـق الحروب القادمة.

أولا: حروب إسرائيل

إذا مـا اسـتثنينا حـرب تشـرين أول / أكتـوبر 1973 الـتي اندلعت بقرار عربي فقد كانت إسرائيل قبـل قيامهـا هـي المبـادرة فـي شـن الحـروب، وهـي المبـادرة فـي شـن الغـارات والاجتياحـات المحـدودة أو الواسـعة. وفـي كـل حروبها كانت المدن والقرى تسقط تباعا، وكان اللاجـؤون من السكان يفرون بمئات الآلاف من منازلهم ومنـاطقهم بحثـا عـن ملاذ آمـن. وفـي الحقيقـة لـم يكـن المـدنيين ليستحقوا اللوم لأنهم أعازل وغير مـؤطرين ولا منظميـن

ولا يمتلكون خبرات قتالية وليس هناك من يدافع عنهم، فحتى الجيوش كانت تفر من مواقعها أو يُطلَب منها الانسحاب بحجة أن المنطقة سقطت عسكريا! أو أنها لا تمتلك سوى أسلحة فردية بالكاد تدافع فيها عن نفسها.

لا شك أن هذا النمط من الحروب كان مريحا لليهود وآمنا. والأكيد أن ما يستبطنه الناس من عقائد اليهود التي لا تقيم حرمة لنفس بشرية دفعهم إلى الخضوع للاحتلال بأبخس الأثمان. والأكيد أيضا أن الأجيال السابقة كانت ثقافتها تميل إلى السلامة والأمن أكثر مما تميل إلى القتال وفقدان الأحبة. والأكيد أن هذا النمط من الحياة يذكرنا بتصريحات إسحق رابين وهو يتغنى بجيشه وهو يحتل الضفة الغربية بـ **500** جندي فقط، وهو عدد لا يكفي للسيطرة على مدينة صغيرة. لكنه كان كافيا لإخضاع مَنْ مُنع من التسلح أو تجرأ على الجهر بمشاعر وطنية.

لكن الحقيقة أن معركة جنين وحرب غزة أثبتتا أن إسرائيل لم تخض، فيما مضى، قتالا حقيقيا مع خصم حقيقي كي نقول أنها انتصرت بفعل تفوقها الميداني أو حتى التكنولوجي. فهي انتصرت فقط لأننا كنا نفر من أمامها ونلتزم البيوت. صحيح أنها احتكرت التسلح كما ونوعا لكنها لم تتعرض لقتال ممن يملكون السلاح وكان باستطاعتهم إيذائها وحتى إزالتها. ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "**نصرت بالرعب مسيرة شهر** " إلا أننا هزمنا من اليهود بفعل جدار صوتي لطائرة أو انفجار لقذيفة أو بضعة آليات دخلت قرية أو مدينة أو حتى قبل أن تدخلها!

حتى اليهود كانوا يفاجَؤون بانتصاراتهم السريعة علينا. فقد اعتادوا ممارسة احتلال يسير دون مقاومة أو خسائر كبيرة في صفوفهم الأمر الذي كان يشجعهم على تغيير خططهم وأهدافهم وتوسيع رقعة الاحتلال بقدر حاجتهم أو بقدر ما يسمح لهم الميدان بذلك. ومن المهم، في هذا

السياق، ملاحظة بعض التصريحات اليهودية التي سـقطت على غير هدى من أحد كبار المحللين في صحيفة معاريف "**عوفر شيلح** " وهو يعبر للإذاعة الإسرائيلية، بعد بضـعة أيام مـن انـدلاع الحـرب، عـن غضـب جامـح منتقـدا الأداء السياسـي للقـادة. هـذه التصـريحات كـانت تـرى**: "أن العمليـة العسـكرية ضـد قطـاع غـزة تـدار يوميـاً بـدون تفكيـر، ووسـط تخبـط بـارز للقيـادات الإسـرائيلية"!؟** هـذه ليسـت كذبـة ولا مبالغـة لكنهـا الحقيقة التي تشي بأن اليهود اعتادوا على إدارة معاركهم بهذه الطريقة قياسا على ما سـبق مـن معـارك فـإذا بهـم يتورطون في غزة.

ثانيا: العقيدة القتالية المضادة

لا شك أن تحرير فلسطين سيكون من الخارج وليس مـن الـداخل. وهـذا لا يقلـل مـن مسـؤولية الفلسـطينيين فـي الداخل خاصة وأنهم بموجب النـص القرآنـي هـم "**شعب الجبـارين** " الـذين اسـتودع اللـه فيهـم هـذه البقعـة المقدسة واختارهم سدنة عليهـا. وهكـذا تبـدو المسـؤولية عظيمة على المسلمين في فلسطين من حيث أنهـم فـي مواجهـة مسـتمرة ودامية مـع القاسـية قلـوبهم وأصـلاب الرقبة بصورة مباشرة لا حواجز بينها أو حجب. والأهـم أن هـذه المواجهـة ستسـتمر إلـى آخـر الزمـان كمـا لـو أن فلسطين هي مركز الصراع الأزلي بين الخير والشر. ولما يكون زوال إسرائيل هو استحقاق رباني لا مفر منـه فهـل العقيدة القتالية الـتي يقاتـل بهـا الفلسـطينيون إسـرائيل، على فرض وجودها، جزء من هذا الاستحقاق؟

1) الدفاع المدني

من الطـبيعي أن يلجـأ اليهـود إلـى منـع الفلسـطينيين مـن التسلح ومحاصرتهم من الداخل والخارج والفتـك بهـم فـي عمليات إبادة متواصلة، فحتى الملاذ الآمـن للمـدنيين كـان ممنوعا في حرب غزة، ولم يعد المسـجد ولا المدرسـة ولا

المنشآت العامة ولا الساحات ولا المستشفيات آمنة من آلة القتل والدمار، بل أن الطبيعة ذاتها والبيئة لم تعودا آمنتين مع استخدام الغازات السامة والحارقة والفسفورية والداين وغيرها من الأسلحة المحرمة دوليا، بل أن الفرار من ملاحقة الطائرات والقنابل الحارقة والباترة والمدمرة إلى مصر كان ممنوعا .. كانت غزة خلال الحرب أشبه بيوم المحشر حيث لا مفر.

والحقيقة أن الفلسطينيون تلقوا من اليهود طوال عقود الصراع معهم من المعاناة والقهر والتنكيل ما لم تتلقاه أية أمة على وجه الأرض. ولا نظن أحدا جرب ظلم اليهود أو استطاع تحمل عنتهم في لحظة استعلائهم وإفسادهم كما فعل الفلسطينيون. فهم يتلقون إفرازات هذه اللحظة من الزمن أكثر مما تتلقاها أية أمة أخرى. لكن هذا لا يمنع من القول أن العقيدة القتالية في شقها المدني كانت شبه غائبة تماما. ولو كانت المعابر مفتوحة، مثلا، لشهد القطاع نزوحا بمئات الآلاف ولتكررت تجارب الحروب السابقة.

ومنذ اغتصاب فلسطين وإلى يومنا هذا لم يسجل التاريخ قوة عربية واحدة تحركت عسكريا لنصرة الفلسطينيين في فلسطين ولو لمرة واحدة. وهذا يعني أن خيار تدخل الجيوش العربية لا يمكن أن يكون جزء من أية عقيدة قتالية سابقة أو لاحقة. وعلاوة على كون الحدود العربية آمنة منذ عشرات السنين إلا أن الموقف المصري بالذات خلال الحرب على غزة بدا أكثر وحشية من غيره كما لو أنه واقع في صميم العقيدة القتالية لليهود. هذه الوضعية من شأنها أن تحيل الفلسطينيين إلى فكرة قبول الحصار، من المحيط، في أية لحظة كإجراء حاسم يستهدف إيقاع أكبر الضرر بهم حتى من أقرب المقربين.

وفي هذا السياق، حيث لا يُنتظر نصرة من أحد، فإن تحصين المجتمع وتأمين حياة السكان هي ضرورات استراتيجية حاسمة بذات القدر الذي تتطلبه حماية القوى المقاتلة، فلا المدني أرخص من المقاتل ولا هذا أثمن من

غيره. ففي أغلب الأحوال يستطيع المقاتل تدبر أمـره فـي الحروب بعكس المدني، وقد دلت الحـروب السـابقة علـى أن أغلب الضحايا مـن المـدنيين، وإذا لـم يقـع التنبـه لهـذه المشكلة وحلها فسيكون الفلسطينيون كمن يقاتل بصـيغة: "**عاش القائد ... مات الشعب** "؟

2) هوية القتال

ميزة الشعب الفلسطيني بعد النكبة أنه مشـتت ومقسـم ومفكك بين لاجئ وغير لاجئ ومهاجر ونازح وبيـن الضـفة وغزة والقدس وبين **1948** و **1967** . وحين نتحدث عن العقيدة القتالية فليس مفهوما أي جـزء هـو المعنـي بهـا؟ ولا ما إذا كانت كل الأمة معنية بها أم أجـزاء منهـا؟ وهـل هـي عقيـدة قتاليـة لحـزب؟ أو لجماعـة؟ أو لحركـة؟ أو لفرد؟ لكن الثابت أن التنوع الأيديولوجي والجغرافي لدى الفلسطينيين أفرز هـو الآخـر تنوعـا فـي مصـادر العقيـدة القتالية حتى باتت بلا هوية. فبالكاد أمسـى الفلسـطينيون بـ "**الكفاح المسـلح** " لتحريـر فلسـطين كاملـة حـتى أصـبحوا ينـادون تـارة بحقهـم فـي تقريـر المصـير وتـارة بالدولـة المسـتقلة وتـارة بـالمؤتمر الـدولي للسـلام ثـم يعودون يبحثون عن السلام وتارة عن التسوية وتـارة عـن الحكم الذاتي لينتهوا إلى المطالبـة بوقـف العـدوان وفـك الحصار وفتح المعـابر والمصـالحة الوطنيـة والتهدئـة ومـا إلــى ذلــك. باختصــار: مــن هــو العــدو الــذي يقــاتله الفلسطينيون بالضبط ؟ ولأية أهداف يقاتلونه؟

لم يكن الحديث عن التسوية السياسية وليد مؤتمر مدريد للسلام، فالمصالحة مع اليهود انطلقت بينما إسـرائيل لـم تقـم بعـد. لكـن علـى الجـانب الفلسـطيني فـإن دخـول التسوية على خـط القتـال أفسـد العقـول وميّـع القضـية. فحتى الذين كانوا يتحـدثون عـن إزالـة إسـرائيل بوصـفها باطـل لـم يكونـوا يـدركون أن إزالتهـا سـتعني بالمحصـلة إزالة سايكس – بيكـو نفسـها، وهـذا ربمـا لـم يكـن هـدفا متوقعا ولا هو بحسبانهم فصمتوا عنه ولم يعودوا يتحدثون

به. والآن لم يعد معروفا ما إذا كان هذا الهدف ما يزال قائما عند البعض أو أنه معلق على حين!؟ لكن أية جماعة أو حركة أو حزب يتحدث عن تسوية أو سلام أو حقوق أو ثوابت أو تهدئات أو هدنات عليه أن يدرك أن عقيدته القتالية محصورة، فقط، في نطاق اختياراته وليست من الاستحقاق الرباني في شيء باعتبار أن القتال هنا ليس له أية هوية ولا هدف إلا الوصول إلى التسوية، وهذه مضيعة للوقت إلا إنْ كان هناك من يحسن الظن باليهود. ومن الطريف حقا أن يدخل مصطلح التهدئة إلى المجال السياسي الفلسطيني ليغدو وكأنه هدفا! فما الفرق بين اتفاقية الهدنة العربية مع إسرائيل منذ سنة **1948** وبين الهدنات المقترحة لعام ونصف مع العلم أن اتفاقية الهدنة العربية تجدد آليا كل ستة شهور!؟ أليس هذا عجبا!؟

في خضم مفاوضات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل أصدر موشيه دايان كتابا له بعنوان "**الاختراق - 1979** " رأى فيه أن إسرائيل لا يمكنها أن تنسحب من أراضي استولت عليها بالقوة في الضفة الغربية ما لم تتعرض لضغط عسكري يجبرها على الانسحاب. أما لماذا يتحدث دايان بهذه اللهجة فلأن وجود أي كيان سياسي به بصيص من الاستقلال سيعني دمارا لاحقا لإسرائيل، إذ يمكن بسهولة ضربها من كل الجهات، فخط النار بين طولكرم وتل أبيب مثلا لا يزيد عن عشرين كيلو مترا، كما أن مخازن السلاح الاستراتيجي لإسرائيل كائنة في الضفة الغربية، فعن أي تسوية ممكنة يجري الحديث؟

المسألة باختصار أن المشروع الصهيوني لا يمكن التقاطع معه عبر تسوية سلمية، إذ أن التفاوض مع اليهود هو كسب لهم وليس لنا، ومن يتابع استطلاعات الرأي عند اليهود سيكتشف بسهولة أن المجتمع الإسرائيلي ظل، رغم انطلاقة التسوية، يميل نحو التطرف والتشدد بينما مالت شعوبنا، في المقابل، نحو التميع والتفكك. وإذا

افترضنا حسن النية فيمن يستعمل التسوية كمناورة في كسب الوقت للبناء والإعداد عليه أن يعيد النظر في سياساته التي قد تكون نتائجها مدمرة على مستوى الوعي.

3) القتال

كسائر العرب في عقليتهم ، فمنذ نكبتهم، لا يزال الفلسطينيون يعانون من مشكلة استعجالهم قطف الثمار وكأنها غنائم حروب قبلية، فلو أطلق أحدهم رصاصة أو رمى بحجر لوجدنا عشرات البيانات تتسابق في تبني ما تعتبره عملية ضد قوات الاحتلال، ولو قتل مدني ليس له شأن في القتال ولا أي انتماء تنظيمي أو أيديولوجي لسارعت الفصائل إلى تبنيه وتسابقت فيمن يلفه بعلمه أولا. هذه الظاهرة ما زالت تتوسع بصورة خطيرة جدا بحيث جعلت من القتال ذو طابع حزبي حتى في ذروة المعارك. لكن المشكلة الأعوص هي ربط القتال بالتسويات السياسية والمناورات والمواقف والتحالفات، وهذه كارثة أي كفاح شعبي، إذ يصير القتال أشبه بالمزاد العلني أو بسوق البورصة. وبالتأكيد لو يجري عزل القتال عن تلاعب القيادات السياسية به أولا ثم عن أية استثمارات سياسية ثانيا لاستطاع الفلسطينيون تحقيق نتائج فعلية منذ زمن. لكن مثل هذا الأمر يحتاج إلى جعل القرار السياسي بيد القوى المقاتلة وما تنجزه على الأرض لا بيد القيادات المدنية التي قد تساوم عليه في أية لحظ ة وتضيعه فيما تسميه مكاسب سياسية وشعبية لا تقدم ولا تؤخر.

وكالعادة، أيضا، ما زلنا نخوض القتال بعقلية الصمود على مختلف المستويات، فنحن صامدون، منذ عقود بلا كلل ولا ملل، في السياسة والميدان، وصامدون ضد هدم البيوت والمطاردات والاعتقالات والأحكام المؤبدة والاجتياحات والترويع وقتل الشيوخ والأطفال والنساء وتدمير المساجد وتدنيس المقدسات وتهديد المسجد الأقصى والحصار

والتجويع والمعاناة والتنكيل والظلم والعربدة والقهر، وصامدون ضد الانحياز الأمريكي والغربي لليهود وضد النفاق الدولي وضد التخاذل العربي وضد الخيانة والتواطؤ وضد العنصرية والاضطهاد وضد سفك الدماء وتغييب الحقائق وضد الانتهازية ... وضد كل شيء. وهذا بحق صمود أسطوري لكنه سلبي في صراعنا مع اليهود، فالتاريخ يثبت بالقطع أن الصمود الذي خلّف مرارات وحسرة في النفوس يكافأ بالنكران والاستهتار واللامبالاة رغم كل ما رافقه من خسائر باهظة التكاليف لما هو قابل للتعويض، لكن ماذا عن الخسائر التي لا تقبل التثمين ولا التعويض؟

عقلية الصمود هذه ربما تكون الظروف السابقة قد فرضتها، لكننا تجاوزنا مرحلة الانقراض والتذويب، وبات من الضروري تجاوز عقيدة القتال دفاعا عن الأمة وشرف الأمة وكرامة الأمة والموت واقفين ولن نركع أو عقيدة التسوية والسلام والترقب وتحسين الفرص أو عقيدة الحزب والجماعة والتنظيم أو عقيدة البيانات الثأرية والنارية. وأن الأوان آن لانعطافة جوهرية نحو عقلية الحركة والإثخان كما يبشر بها الدكتور عبد الستار قاسم حين أشار في مقالة له بعنوان: "**معالم الحرب القادمة" من** أن الحروب القادمة تستدعي خروج المقاومة من خنادقها ومهاجمة العدو. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

فاليهود مثلا يتجنبون القتال التلاحمي، والتجارب كثيرة، فقد سبق لهم وامتنعوا عن دخول بيروت خلال حصارهم لها سنة **1982** إلا بعد انسحاب المقاومة منها، وفعلوا نفس الشيء في مخيم جنين، وكرروا السلوك ذاته حين امتنعوا فعلا عن دخول غزة وبقية المدن خشية الوقوع بهذا الفخ. ألا يفرض هذا على المقاومة التفكير جديا بوسائل من شأنها توريط اليهود بقتال تلاحمي شاؤوا أم أبوا حتى لو استدعى ذلك جرهم إلى معاقل المقاتلين؟

بشرط أن يضع المخططـون العسـكريون اسـتراتيجيا هـذا النوع من القتال مع عدم أي تدخل مـن قبـل السياسـيين؟ فمن البديهي أن يفضي اعتماد استراتيجية القتال التلاحمي إلى تحقيق اختراق نوعي فـي عقيـدة اليهـود القتاليـة مـن حيث عدد القتلى والأسرى وردع الغطرسة والدمويـة الـتي يمارسونها ضد الخصم.

4) الإعداد

سواء خاض الفلسطينيون الحرب أو فرضت عليهم فالأكيد أنهـم مطـالبون بالإعـداد لهـا، صـحيح أن الإعـداد مرتبـط بالاستطاعة، لكن أي نوع من الإعداد هو المقصـود؟ وعلـى أيــة أســس عقديــة ســيقوم؟ ومــا هــي هــويته؟ هــل هــو سياسي؟ أم حزبي؟

من المعروف أن الساحة الفلسـطينية فـي الـداخل، حيـث يمكــن قتــال اليهــود دون إذن مــن أحــد، تعــج بالفصــائل والأيديولوجيات، فمن شاء أن يقاتـل فـي سـبيل اللـه فلـه ذلـك وهـو أفضـل القتـال شـرعا وأسـلمه للنفـس وللـدنيا والآخرة، ومن أراد أن يقاتل تحت راية أخرى فليفعـل وهـو من يتحمل نتائج قتاله شرعيا، لكن العقيـدة القتاليـة يجـب أن تكون واضحة وملكا للجميع بما في ذلـك المـدنيين. أمـا أن يستمر التعامل مع القـوى المقاتلـة والمجتمـع بمـوجب معايير تنظيمية وحزبية استعلائية واحتكاريـة فهـذا سـيؤدي إلى حـالات مـن انعـدام الثقـة كالشـك والريبـة والتـوجس وتكريــس للخصــومات والبغــض بيــن المقــاتلين وانقســام اجتماعي، وللحق فقد كانت تصريحات أمير جيش الأمة لـ: " **إسلام أن لاين** " مثيرة وهو يتحدث عن غياب التنسيق بين القـوى ميـدانيا وعـن احتكـارات لمنـاطق القتـال خلال الحرب. فهل من المجدي أن يقاتل تنظيم في وسط حرب طاحنة وعيونه تراقب الآخرين وكأنهم أعداءه!؟

إذن الإعـداد يتطلـب منظومـة شـرعية وأخلاقيـة وواقعيـة تفوق منظومة القوة العسـكرية والتنظيميـة بحيـث ينصـب

الجهد في صالح الهدف المحدد والذي يعني الأمة. لكـن إذا كانت المعارك والحروب ستخاض باسم التنظيم ولمصـلحة التنظيم ولأهداف التنظيم وبقيادة التنظيـم وإعلام التنظيـم وبطولات التنظيم فهذا مؤشر على أن الإعداد المقصود لم يستوف شرط الاستطاعة بقدر ما استوفى شرط التنظيـم الذي لا يرى في غيره، حتى في نظرته للمجتمع، إلا مجرد. آخريـن وشـتان بيـن هـذا وذاك. أمـا المؤشـر الأهـم فهـو اقتصار الإعداد على غـزة بعيـدا عـن الضـفة الغربيـة الـتي بدت وكأنها خارج الحسابات رغم أن الامتيازات التي تتيحها طوبوغرافيا المنطقة وديمغرافيتها للقتال لا تقارن بمـا هـو كائن في غزة. فلنتخيل فقط نتائج نقل تجربة التصنيع إلـى الضفة والأثر الذي يمكن أن تحدثه. وهنا ثمة سؤال بسيط: هل أن غزة مجرد معقل لرأسمال حزبي؟

وفي السياق تظل مشكلة الأمن واحدة من أشـد العقبـات فـي طريـق بنـاء عقيـدة قتاليـة فعالـة. صـحيح أن النسـبة المئوية للطـابور الخـامس بالنسـبة للشـعوب المسـتعمرة معدلها **6%**، لكن مثل هذه النسبة كبيرة جدا على مجتمـع ذو جغرافية مفككة وصعبة وكثافـة سـكانية محصـورة فـي بقعـة جغرافيـة صـغيرة. وبحسـب تقـديرات نشـرت سـنة **1989** ثمـة مـا ينـاهز الــ **100** ألـف عميـل وعميلـة فـي الضفة الغربية وقطاع غزة. وليس لدينا أية معلومات فيمـا إذا كان العدد قد زاد أو نقص.

ومن ثوابت العقيدة القتالية عند اليهود أنهـم لا يسـتطيعون القتال إلا وعيونهم مفتوحة، فإذا ما عميت عيونهم تخبطـوا تماما. أما وأد فكـرة أن يكـون للعملاء أي شـأن يـذكر فـي المعارك قـد جـرى تطبيقهـا بشـكل واسـع خلال الانتفاضـة الأولى. غير أن اليهود نجحوا إلى حد كبير في اخـتراق هـذا التوجه عبر الزج بعملائهم في الفصائل والتنظيمات وحــتى في المجتمع لممارستها على نطاق واسع، فكـانت النتيجـة أن خرجــت تطبيقــات الفكــرة عــن الســيطرة وتســببت بتصـفيات لأبريـاء قبـل أن تتوقـف. أمـا الشـق الآخـر مـن

المشكلة فيكمن بوجود عائلات كاملة امتهنت العمالة والجاسوسية، والكثير منهم ظاهر للعيان ومعروفة أسبقياتهم وتاريخهم لكن ليس ثمة قدرة على تصفيتهم لأن ذلك يعني الدخول في مواجهات ذات طابع اجتماعي. وشق ثالث وهو الآخر أن إسرائيل لديها القدرة على تجديد جيش العملاء بصورة منتظمة وسريعة وفعالة. وأخيرا دخول قطاعات واسعة جدا من رموز السلطة الفلسطينية كطرف في خدمة إسرائيل والتغطية على جرائمها وتمرير مخططاتها عبر أجهزتها الأمنية، ولا فرق، في هذه الحالة، أن يكون التعامل مع اليهود ناجم عن فساد أو عمالة رسمية. وإذا ما استمرت المشكلة قائمة فلا شك أن يد إسرائيل ستظل طويلة حيث تشاء وعيونها مفتوحة بما يكفي لملء خزانات معلوماتها كلما نضبت.

5) الرأي العام

أما قصة الاستنجاد بالرأي العام فليكن معلوما أن الشعوب والمؤسسات تحركت ضد وحشية إسرائيل أكثر مما تحركت لنصرة الفلسطينيين. ولا شك أن إسرائيل انكشفت للمرة الأولى أمام الرأي العام. لكن لنكن دقيقين في معالجة هذه المسألة.

إذا تعلق الأمر بالرأي العام العربي فلا أظن أن فائدة تذكر يمكن تحقيقها إلا إنْ أحدث هذا الرأي تغييرا جوهريا بحيث يكون له صدى سياسي أو عسكري وصدى إعلامي في الغرب وهو أمر مستبعد لأكثر من سبب. لكن إذا تعلق الأمر في الرأي العام الغربي (الولايات المتحدة وأوروبا وكندا وأستراليا واليابان) فالمسألة هنا مجدية. بل هي في صلب العقيدة القتالية كون هذه الدول هي التي تتحكم في السياسة الدولية وتتأثر بحركة شعوبها. لكن حتى الرأي العام الأوروبي قد لا ينجح في إحداث أي تغيير حتى لو خرج بمئات الآلاف، وستكون مشكلة لو خرج واكتفى بالاستنكار أو الإدانة كما هو حاله خلال الحرب على غزة. وفي السياق نستذكر الاحتجاجات الكبرى التي اجتاحت

أوروبا في أواخر الثمانينات ضد السياسة النووية للولايات المتحدة، فرغم خروج مئات الآلاف إلى شوارع المدن الأوروبية احتجاجا على عزم الأمريكيين نشر صواريخ بيرشنغ وكروز النووية إلا أن وزير الدفاع الأمريكي آنذاك كاسبر واينبرغر قال بصريح العبارة أن هذه الاحتجاجات غير كافية لمنع نشر الصواريخ! وخلال الحرب على غزة سئل الكثير من الأوروبيين عن موقفهم مما يجري فكان الرد بأن لإسرائيل الحق بالدفاع عن نفسها. فالإعلام الغربي غيب الحقائق وأخفى معالم الجرائم وكان مماثلا للإعلام الإسرائيلي حيث لم ينقل وقائع الحرب وصور المجازر الوحشية.

لا شك أن الرأي العام سيظل ضعيفا وغير قادر على الإخلال بموازين القوى، ولا يعول عليه ما لم يفرض العسكر تغييرات ميدانية على الأرض تؤدي إلى تحقيق مكاسب بعيدا عن أية تنازلات سياسية أو شرعية. مكاسب وتغييرات تكفي للكشف عن وهن القوة المتغطرسة وحقيقة جرائمها وخسائرها، وتكون قادرة على معاقبة الإعلام الدولي المنحاز لإسرائيل وإجباره على نقل الوقائع الميدانية رغما عنه. وهذا جزء من الاستحقاق الرباني في الحرب ضد إسرائيل. فاليهود ما كانوا ليفسدوا في الأرض إلا بحبل من الله وحبل من الناس. لذا لا بد من العمل على توظيف الرأي العام في إضعاف الحبل الذي سخره الله لهم تمهيدا لقطعه.

أخيرا فإن أخشى ما نخشاه أن يستمر الحال الفلسطيني على ما هو عليه. فهذا يعني أننا سنضطر إلى خوض المزيد من الحروب التي ليس لعقيدتها القتالية أية هوية أو محتوى. ولسنا على يقين من أننا سنتساءل حينها بتعقل ومسؤولية: هل حقا كنا على صواب؟ أم أننا مخطؤون؟

أيا كانت الإجابة فالأوراق العالقة كثيرة وقد تسقط في أي حين ولا بأس إن لم تجد من يلتقطها ...